يسهل علينا الجمع بين منظوري الوعي واللاوعي ، دون التورط في محاولة رسم الحد الفاصل بينهما .

ومن المرجح ان شرابي عمد الى كتابة مذكراته كمثقف عربي أمضى ثلاثين عاما من سنواته الخمسين في الغرب ــ وفي اميركا بالذات ــ لكي يتبين لنفسه ويبين للقارىء في آن معا حالة الجمر والرماد التي آلت اليها سيرة الوعي عشية بلوغ صاحبها عتبة الخمسين من عمره . ان صفحات مذكراته تعج بالصور والوجوه التي يستحضرها من الماضي ويحركها امام القارىء ببراعة فائقة ــ كالدمى احيانا ــ لكي نكتشف من خلال عنصر المفارقة الزمنية ان المراحل والمحطات التي بلغتها مسيرة الوعي الثقافي واجتازتها ، تبعا لمراحل الدراسة والانتماء الحزبي والنشاط السياسي ، تتوقف في خاتمة المذكرات عند العام ١٩٤٩ . فالفترة الممتدة من ١٩٤٩ الى ١٩٦٧ توصف في الفقرة التالية من الجمر والرماد بانها فترة « صمت في المنفى » : ــ

« ثم وقعت كارثة ١٩٤٨ . ولم يصبني منها الا الرذاذ . وفي سنة ١٩٤٩ ، التي حطم فيها الحزب (بعد عودتي من شيكاغو ببضعة اشهر) اصبت بضربة مباشرة . ورغم ذلك فقد نجوت بنفسي وعدت الى اميركا . في حين اعتقل معظم اصدقائي وقتل البعض . ومنذ ذلك الحين وحتى سنة ١٩٦٧ تحولت حياتي الى حياة صمت في المنفى »(ص ١٦٧)

لقد شهدت فترة الصمت هذه ــ والتي عاشها شرابي في المنفى . كما يقول في مذكراته ــ صعود الناصرية كظاهرة تحررية ومناهضة للاستعمار على الصعيد السياسي العربي والدولي ، هذا بالاضافة الى الزخم الذي استمده مسار الفكر القومي والوحدوي العربي . ومما يسترعي الانتباه ان مذكرات شرابي تصمت بالفعل حيال هذه الظاهرة البارزة التي استحوذت على عقول الكثيرين من المثقفين واستقطبت تفكيرهم وتوجههم السياسي والقومي طيلة فترة لا يستهان بها من تاريخ العرب المعاصر .

ولا بد من التساؤل عن مبرر هذا الاغفال او الصمت المتعمد من جانب صاحب مذكرات الجمر والرماد . ربما كان احد الاسباب يرجع الى كون هشام شرابي قد سبق له ان تناول هذا الموضوع في كتاب أصدره في « المنفى » عام ١٩٦٦ بعنوان « القومية والثورة في العالم العربي » (الشرق الاوسط وشمال افريقيا) ففي هذا الكتاب الصادر عن « مواطن اميركي » من « مواليد لبنان » (كما يقول غلافه) يقدم شرابي تحليلا للقوى التي لعبت وتلعب دورا حاسما وفعالا في تكوين سياسة الشرق الاوسط (اي العالم العربي وشمال افريقيا) .

واذا كان المجال لا يتسع هنا للتوقف عند الملامح الرئيسية لهذا الكتاب الذي نعتبره متمما للنواحي المغفلة في المذكرات ، فلا ضير هناك على الاطلاق في التذكير بان طالب الفلسفة قد تحول هنا الى استاذ للتاريخ وانظمة الحكم في جامعةجورجتاونوحبذا لو اشار شرابي في مذكراته الى هذه الأمور دفعا للالتباس وتنويرا للقارىء . مع العلم تماما بان فئة معينة من قراء الكتاب تكتفي بالترحيب والاستقبال الحار ، دون الخوض في التفاصيل والتساؤل عن مغزى الاغفال ومبررات اللوذ بالصمت .

ومن الملاحظ لدى متتبعي كتابات شرابي ان المقدمة التي كتبها عام ١٩٧٤ ونشرها في مطلع كتابه « مقدمات لدراسة المجتمع العربي » (صدر عن الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٥) ، تكاد تؤلف فصلا لاحقا من فصول مذكرات الجمر والرماد . فالمثقف الذي بلغ الاربعين من عمره عشية الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، خرج عن صمته في المنفى ودخل في مرحلة جديدة من حياته . لكي ينتقل من المحافظة الى الثورية في التفكير . ويقف عند هذا المنعطف التاريخي الفاصل . ومن ثم يأخذ باعادة النظر جذريا في مواقفه الفكرية والسياسية السابقة كلها . هنا تطالعنا المفارقة الزمنية ، حيث « الماضي يفتح ابوابه امامي » وتعود الذاكرة بهشام شرابي عشية الخامس من حزيران ١٩٦٧ الى مدينة يافا . مسقط رأسه . التي رآها صاحب الجمر والرماد للمرة الاخيرة من نافذة الطائرة التي اقلعت به ــ وعلى متنها فايز صايغ ــ من مطار اللد « في يوم ماطر من كانون الأول سنة ١٩٤٧ . في طريقها الى اميركا » (المقدمات ، ص ١٣) . وبهذه الرحلة التي ابعدته عن ارض الوطن طلبا للعلم؛والثقافة تبدأ فاتحة مذكرات الجمر والرماد .

وحين يعمد الباحثون الى دراسة الآثار التي خلفتها هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ لدى المثقف العربي سواء كان مقيما في الوطن أم مغتربا في